العلم والأدب والأساطير في كتب السلف (١)

الأمير مصطفى الشهابي
وزير المعارف السورية سابقاً

لا يجهل أحد ان أجدادنا العرب قد خلفوا لنا تراثاً علمياً وأدبياً ضخماً ، وان معظم ما ولدته قرائح السلف من الكنوز الثمينة قد طوته الايام في طياتها ، وغيبته في مجاهلها ، ففقد واندثر ولم يبق منه سوى أسماء مصنفات يقرؤها المرء في تراجم المؤلفين . ولكن الجد العاثر لم يقو على اتلاف جميع هذه المصنفات ، بل لبث منها جملة صالحة منثورة في دور الكتب العامة والخاصة في الشرق والغرب كدار الكتب المصرية في القاهرة ودار الكتب الظاهرية في دمشق ودور كتب ليدن وبرلين والاسكوريال ولندن وباريس وغيرها كثير

ومن المعروف ان علماء العرب والاسلام كانوا إبان مدنيتهم الزاهرة حلقة مهمة من حلقات تاريخ العلوم البشرية . ولهذا اذا أنعمنا النظر في مخلفاتهم ألفيناها تتضمن خلاصة علوم الاجيال القديمة ، أي زبدة ما ولدته قرائح الأمم التي درجت قبل العرب في القرون الاولى ، مع اضافات جليلة أضافها علماء العرب اليها في مختلف العلوم ، ولا سيما فيما له صلة بالعلوم الاسلامية وعلوم اللغة وفنون الادب العربي

ولا ينكر أحد فضل المستشرقين علينا فيما نشروه من تلك الكتب في القرن الماضي وفي القرن الحاضر ، بعد ضبط موادها وتمحيصها وفهرستها وضبط كثير من كلمها بالشكل الكامل وطبعها على ورق صقيل بأحرف جميلة وابرازها للناس بحلل قشيبة . ولا ينكر أحد أيضاً فضل مطبعة بولاق الأميرية ، ودار الكتب المصرية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر فيما نشرته وتنشره من الكتب القديمة والحديثة

والذي حداني على كتابة هذا المقال وقوع نظري على بعض كتب قديمة نشرها ناشرون حديثاً دون أن يتساءلوا هل في نشرها فائدة أو لا ، فالكتب القديمة ليست كلها مفيدة ، بل يمكن القول ان بعضها مضر ولا يجوز ان يقرأه الناس في أيامنا هذه . وليس في قولي هذا غرابة ، وإقامة الدليل عليه من أبسط الأمور . وما علينا الاّ ان نلقي نظرة على أنواع العلوم التي صنف فيها أسلافنا العاملون فتتجلى لنا هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها

---

(١) محاضرة ألقيت في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق ومنها اقتطف بتصرف

﴿علوم السلف﴾ يمكن قسمة علوم السلف (من حيث بحثنا هذا) ستة أقسام وهي : أولاً — علوم الدين . ثانياً — علوم اللغة . ثالثاً — آداب اللغة . رابعاً — ضروب الفلسفة خامساً — العلوم المادية . سادساً — العلوم الاجتماعية

فالعلوم الدينية من فقه وحديث وعقائد وغيرها لا نتعرض لذكرها ، لأن لها في الازهر وغير الازهر علماء أعلاماً هم أدرى منا بحقائق ما صنفه أسلافهم فيها ، وبما يفيد او لا يفيد نشره من تلك المصنفات . ولا بدَّ لكل شخص يلمُّ إلمامةً بالكتب المذكورة من ان يدهش للجهود الكبيرة المضنية التي جعلتهم يطلعون علينا بهذا التراث العظيم . لكن الكتب القديمة للعلوم الدينية خضمٌ واسع الارجاء يضلُّ فيه أمثالي ويتمنون ان يقرأوا بدلاً منها كتباً دينية حديثة مبسطة حسنة الترتيب والتبويب خالية من الحشو والتطويل ، يستفيد منها غير المعممين قبل المعممين . ولو صنف علماء اليوم كتباً كهذه وجعلوا الكتب القديمة للاختصاصيين من علماء الدين دون غيرهم ، لأفادوا جمهور المتأدبين فوائد كبيرة

أما كتب اللغة التي صنفها الأجداد فلا غنى لنا عنها ريثما نصنف ما هو أجود منها في هذا الزمان الذي اتسعت فيه المعارف البشرية حتى ضاقت معجماتنا عنها كل الضيق . فالقاموس المحيط واللسان والصحاح والمخصص والتاج وأساس البلاغة وأمثالها كلها اليوم ضرورية . وقد خدم ناشروها لساننا العربي خدمة جلى . ولا بدَّ من الاحتفاظ بها وبنسخها المشذبة أي المعاجم الحديثة كمحيط المحيط وأقرب الموارد والمنجد والبستان وأضرابها . ولكن جميع هذه المعاجم لا تصلح في الحقيقة لزماننا هذا لأن فيها من العيوب والنقائص ما لا يعد ولا يحصى وحسبك منها ان معظم ما ورد فيها من الاسماء والاصطلاحات لم يعرَّف تعريفاً علمياً (١) .

ولست أدري متى يصبح عندنا معجم عربي (كمعجم لاروس الصغير مثلاً) تضبط فيه معاني الالفاظ ضبطاً علمياً ! ومتى يكون لنا معجم فرنسي عربي يشتمل على أجود الكلم العربية أو المعربة للمصطلحات العلمية والمخترعات الحديثة ، ولست أدري من هم عشرات العلماء الذين يستطيعون صنع هذين المعجمين حتى ان يعمل كلٌّ منهم في نطاق اختصاصه ! ومهما يكن من أمر فلا بدَّ لنا في تحقيق هذه البغية من الاستعانة بالمعاجم القديمة والحديثة ، ومن الترحيب بما يطبع من أبحاث اللغة كالافصاح الذي اختصرت فيه ألفاظ المخصص ، وكرسائل الثعالبي التي كانت طبعت في مطبعة بيروت للآباء اليسوعيين ، وكأدب الكاتب لابن قتيبة الذي نشره المكتبي الأديب السيد محب الدين الخطيب ، وكرسالة الكرم التي نشرها الاستاذ اللغوي سليم الجندي في مجلة المجمع العلمي العربي الخ

(١) انظر مقالتي في عيوب المعاجم العربية في عدد تشرين الأول [illegible] سنة ١٩٢٤ [illegible] من المقتطف

وأما آلات اللغة وأخص منها الصرف والنحو فكتبها القديمة هي النبع الذي يستقي منه كل أديب متمكن من لسانه . ولا سبيل الى نكران الثمرات التي يجنيها المتأدبون من تلاوة كتاب سيبويه ومغني اللبيب وشرح الشافية وأمثالها . ولكن من ذا الذي ينكر ان قواعد لغتنا العربية تحتاج الى تبسيط ، وان الانكباب على كتب الصرف والنحو القديمة يعدُّ من الأمور الفنية ، وان طلاب الادب يرجحون تلاوة الكتب المدرسية الحديثة لسهولة فهمها.

ومع هذا لا بدَّ لنا من الاحتفاظ بالكتب القديمة ليرجع اليها أساتذة اللغة وعلماؤها

﴿ كتب الادب القديمة ﴾ هي في نظري من أعظم مخلفات الاجداد شأناً ، ومن أشدها تأثيراً في كياننا القومي . فهي التي تعلمنا بيان لغتنا وتعابيرها ومصطلحاتها ، وهي التي تطلعنا على جانب من عدنية أجدادنا وعلى كثير من عاداتهم وأخلاقهم وسيرهم وحكمهم وأمثالهم ومعيشتهم ، سواء في ذلك البدون أم المتحضرون منهم . وأرى أنهُ لا يمكن ان تقوم قائمة لشعب من الشعوب في عصر القوميات هذا ، اذا أهمل تراث لغته الأدبي . ولهذا وجب ان نهتمَّ بكتب أدبنا القديم لا لما فيها من فوائد بيانية حسبُ ، بل لما حوتهُ من شئون قومية يستفيد منها كل عربي صميم ، دع الذين عروبتهم من قوارير . ويتضح من ذلك ان العمل على نشر أمهات كتب الادب يعد من الأمور الحيوية للغتنا ولقوميتنا جميعاً . ولا تقدر الفوائد التي تحصل عليها من مثل طبع الكامل والأمالي والبيان والتبيين والأغاني والعقد الفريد ونشوار المحاضرة ودواوين فحول الشعراء وتراجم كبار الأدباء . ولا يقل شأناً عن ذلك جمع أمثال العرب وحكمهم وقصصهم كما فعل مصنفا كتاب (قصص العرب) المطبوع في مصر حديثاً

واذا دعوت الى ضرورة طبع كتب الادب القديمة والى ابرازها على المتأدبين بحلل قشيبة : والى اقبال شبابنا المتفقين عليها ، فلست أنكر ان الادب العربي كائن حي يجب ان يتطوَّر مع الزمن كسائر الأحياء ، وانهُ يجب ان يكون لنا أدب جديد يتناول من شئوننا الحاضرة ما تناوله الادب القديم من شئون آبائنا الأولين . فأنا اذن لا أقول بوجود أدب قديم وأدب جديد . بل بوجود ادب عربي واحد حي تام يتطور مع الزمن بأساليبه وصوره وعلى شبابنا المثقفين ان يتزودوا بالسائغ من هذا الادب قديمه وحديثه . فمن القديم يتعلمون ملكة البيان في دقائق التعبيرات والمصطلحات ، ومن الجديد يتعلمون اساليب الغربيين او قل أساليب المتأخرين في الانشاء الواضح والافكار المتسلسلة

وفي الادب القديم يعيشون بخيالهم في مجتمعات الاجداد ويتعلمون عيشهم . وفي الأدب الجديد يجدون صور مواطنيهم وغير مواطنيهم من الأجيال الحاضرة ، وصور البيئات التي يعيشون فيها . ويتضح من ذلك ان في قديم الادب العربي وحديثه امراً ينبغي لكل متأدب الاطلاع عليها على السواء . ومن خطل الرأي بل من التجني على لغتنا وعلى قوميتنا

القول بأن الأدب العربي القديم لا يصلح لهذا الزمان ، وانه يجب ان نقطع صلتنا به . ومن حظي ان أرى بيننا من يحتج على لغة انصار الاكتفاء بأساليب الأدب القديم والاعراض عن أساليب عصرنا الحاضر . فاللغة العربية يجب ان تظل حية نامية . ولا ينبغي في ذلك الا أن يصور أدباؤنا المحدثون بيئتنا الحاضرة بأساليب العربيين وبيان الأدب القديم وإشراقه

﴿ العلوم المادية ﴾ هي بيت القصيد في هذا المقال . وقد حفزني الى كتابته اقدام بعض الجماعات على نشر مخطوطات عربية قديمة في علوم طبية وزراعية لا تصلح لزماننا هذا

ومن المعلوم ان العرب القدماء قد اشتغلوا كثيراً بالعلوم الرياضية والطبية والزراعية كما اشتغلوا بالكيمياء والنبات والحيوان وغيرها . فالعلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة ومثلثات وفلك لا يغير الزمان قواعدها ونظرياتها المضبوطة . ولا يكون اثنان واثنان الا اربعة سواء أفي الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل . ولا ضير اذن في نشر ما امكن نشره من مخلفات الأجداد في هذه الموضوعات الرياضية ، ولاسيما اذا تمشى ترتيبها وتبويبها مع مقتضيات عصرنا الحاضر

اما العلوم الزراعية فقد تبدلت عما كانت عليه في القديم تبدلاً كلياً . فمنذ أوائل القرن التاسع عشر كشف العالم السويسري (سوسور) حقائق عظيمة الشأن في الفسيولوجية النباتية من الوجهة الكيمائية ، ثم وضع ليبغ Liebig الالماني وبوسنغلط Boussingault الفرنسي أصول الكيمياء الزراعية وكيفية اغتذاء النبات بالعناصر الغذائية ولاسيما بالاملاح المعدنية . ثم كشف باستور عن الميكروبات وعلل حدوث الاختمار . ثم فحص العلماء تركيب الاسمدة والأتربة والغلات والثمار ، واستنبطوا اصناف الزروع والشجر وسلالات عديدة من الحيوانات الاهلية ، واخترعوا الآلات الزراعية ، ودرسوا طبائع الحشرات والمكروبات وامراض النبات الخ الخ

وهكذا أصبحت الزراعة الحديثة قائمة على ادق الأسس العلمية . ولم تبق أية صلة تذكر بين فنون ما كان يعرفه الاقدمون في شؤون الزراعة العملية وبين العلوم الزراعية الواسعة في ايامنا هذه . ويتضح من ذلك انه لا فائدة من نشر المخطوطات الزراعية القديمة ، بل في نشرها ضرر لما تحويه من الخرافات والاساطير التي ينبو العقل عنها . ولا يخطر في بال اوربي تلاوة كتاب زراعي قد نشر في القرن التاسع عشر لعلمه بان الزراعة قد تطورت تطوراً كبيراً في القرن الماضي وفي القرن الحاضر

وهكذا الحال في الطب والبيطرة والعرب فضل كبير في هذا الباب . ولكن أين طب الايام السالفة من العلوم الطبية الواسعة في هذه الايام ؟ وأين تشريح الماضي من تشريح اليوم ، وأين التداوي بالعقاقير من التداوي بالادوية الحديثة ؟ واين الجهل بالمكروبات

من معرفة حياتها وعملها في جسم الانسان وأين وأين؟ لقد تقدمت العلوم النظرية تقدماً لا مجال معهُ للبحث عن الطب القديم ولا عن كتبهِ القديمة. والطبيب الذي يقتصر في المداواة على هذه الكتب يُسمَّى اليوم دجالاً ويعاقب بالسجن في شرائعنا وشرائع البلاد الاوربية على السواء

اما الكيمياء فقد قلت رأساً على عقب. ويكاد هذا العلم ان يكون اليوم غير الكيمياء القديمة بتاتاً. فأين تلك الاعمال التي كانوا يأتونها في التفتيش عن الذهب او بغية صنع العقاقير النباتية، من أنواع الكيمياء المعدنية والعضوية والتحليلية في العصر الحاضر. وأين الاجسام القليلة التي عرفوها أو أوجدوها، من العناصر التي كشف عنها اليوم، ومن ألوف المركبات الكيميائية التي تستعمل في الطب والزراعة والصناعات المختلفة؟

وهكذا أمر النبات. فاليونان ثم العرب قد عرفوا كثيراً من النباتات التي تنبتها الطبيعة، وحلوها تحلية حسنة، أي وصفوا صفاتها الخارجية وصفاً في بعضهِ كثير من الدقة. ولبعض العشابين من العرب شهرة عالمية كالغافقي وابن الصوري وابن البيطار. والاطباء والعلماء المشهورين أبحاث جليلة في مفردات الادوية كالرازي وابن سينا وابن ماسة وعبد اللطيف البغدادي والبيروني والادريسي وغيرهم. وتعد مفردات ابن البيطار من أجل المؤلفات النباتية في تلك الأيام

ولكن كل ذلك لا يعد صالحاً ليوم الناس هذا. فعلماء القرون الوسطى كانوا يجهلون المجهر الذي يجلو الخلية ودقائق اعضاء النبات ونسجه، وكانوا يجهلون كيفية تغذي النبات، والمواد المعدنية التي يتغذى بها، والاعمال الكيميائية التي تحصل في حياته وفي نموه. ولهذا لم يكن لهم معرفة بالتصنيف الحديث ولا بالفسيولوجيا ولا بالتشريح الداخلي ولا بعلم حياة النبات، ولا بالاسس العلمية التي يقوم عليها علم إصلاح النسل، وكل ما عرفوه من هذه العلوم العويصة امور سطحية كانوا يشاهدونها في شكل النبات الخارجي وتجارب بسيطة كانوا يجرونها في حياته وفي خواصهِ. وكثيراً ما كان يختلط عليهم الصحيح بغير الصحيح

ولم تكن معرفة الأقدمين بعلم الحيوان تزيد على معرفتهم بعلم النبات الا فيما له اتصال وثيق بهم كالخيل والابل مثلاً فان معرفتهم بها كانت واسعة كمعرفتهم بالنخل من النبات. والدليل على ذلك الالفاظ العديدة التي نراها في معاجمنا لتلك الحيوانات، مما ليس له مثيل في اي لغةٍ ما لغات العالم على ما اعتقد. ولكن هذه المعرفة لا تتعدى الظواهر والمرئيات والملاحظات التي يلاحظها المرء في طويل اتصاله بتلك الحيوانات: اما الاسس العلمية التي يقوم عليها علم الحيوان فقد كانوا يجهلونها جهلهم لأمثالها في علم النبات. وهذه الاسس هي وليدة النهضة الاوربية الحديثة ولا نجد منها شيئاً يذكر في كتاب الحيوان للجاحظ ولا في حياة الحيوان للدميري

وعرف الأقدمون شيئاً من ابحاث علم الفيزياء (علم الطبيعة، علم الطبيعيات) كبعض

أبحاث الصوت والضوء والسائلات . ولكنهم جهلوا بعض نظرياتها الاساسية كاجهلوا بحث الكهرباء العظيم برمته . ولم يكن لديهم بعض آلات الضوء الحديثة ولا آلات الكهرباء العديدة المعروفة ولا آلات الجويات (كموازين الحرارة والجو والمطر وسرعة الريح) الخ . وفي الحقيقة لقد تقدم علم الفيزياء تقدماً مدهشاً . ولم يبق اي اتصال يذكر بين عهد مبادئه البسيطة في القديم ، وعهد الكهرباء وتحطيم الذرة أي الجوهر الفرد في العهد الحديث

ويتضح من هذا البحث المجمل ان العلوم المتعلقة بالطب والزراعة والنبات والحيوان والطبيعة قد تقدمت في النهضة الحديثة تقدماً واسعاً جداً ، وان مؤلفات الاقدمين في هذه العلوم لا تصلح لزماننا هذا ، وان الاكتفاء بها معناه الرجوع الى القرون الوسطى أو الى القرون الاولى . ومع هذا لا تخلو هذه الكتب من فوائد . وأهم فوائدها كونها تهدي المؤلفين الى عدد لا يستهان به من الالفاظ والمصطلحات العلمية مما يجب اقتباسه واستعماله في الكتب الجديدة . ومن فوائدها كونها تحسب حلقة من حلقات تاريخ العلوم البشرية . ولهذا قد يستفيد العالم من تلاوتها اذ يقايس بين محتوياتها ومحتويات الكتب العصرية . ولكن الطلاب والمتأدبين لا يجوز ان يضيعوا وقتهم بقراءتها ، فان فائدتهم منها لا تذكر اذا قيست بالفوائد التي يجنونها من تلاوة الكتب الحديثة

﴿ كتب الفلسفة والاجتماع ﴾ ضلّ من ظن ان العقل البشري قد تقدم في أبحاث ما وراء الطبيعة خطوة واحدة منذ أيام ارسطو حتى يومنا هذا . فنحن ما زلنا نجهل حقائق هذا الكون العجيب ، وما برحنا نتخبط في تلمس أسراره وفي استقصاء أحاجيه . ولم تتبدل تلك الاسئلة التي يتساءل الانسان عنها وهي : هل للكون حدود في الفضاء ام لا . وهل له بداية أم هو أزلي . وما هي الطبيعة ؛ وهل هي تسير بذاتها أم قاعدة تسيّرها . وهذه العلة هل هي مادة أو عقل أو شيء لا يمكننا ادراكه . ثم ما هي ماهية الانسان ومن أين أتى والى أين يذهب . وهل العالم مخير أم مسير بجبرية لا تتزحزح . وهل أمام العالم رقي أم هو يدور أبديًا على حاله . وما الحركة العامة للكائنات ؛ وما الحكمة فيها . وهل القواعد الخلقية شريعة بشرية واجتماعية فحسبُ ، أم لها أساس في الطبيعة كلها الخ

هذه أمور ما برح عقل الانسان تائهاً في بيدائها ؛ وكل فيلسوف في القديم والحديث بحثها على ما يراه . ويقول العلماء بوجوب تركها لأنها لا يمكن ادراكها . ولهذا وجب في رأي العلماء ، الاكتفاء بكلمة لا أدري والكف عن مناقشة ما لا يمكن بته بالوسائل العلمية . ولكن الحقائق العلمية ليست كل شيء في هذه الحياة . ولا بد لدماغ الانسان من أن يتطلع الى معرفة ما يهمه من هذا الكون ولا سيما ما يتعلق منه بمصيره

ولا شك ان فلاسفة اليوم قد ارتقت مداركهم وتصوراتهم عن قبل ، كما ارتقت العلوم

نفسها فصارت تعالج بوسائل يقينية غير الوسائل القديمة . ولكن في فلسفة اليونان وفلسفة العرب أبحاثاً طبية تصلح لزماننا هذا صلاحها للزمان الذي ألفت فيه . ولبعض فلاسفة العرب محاكمات عقلية دقيقة تدل على عقول جبارة ، مثال ذلك تلك الأدلة الفلسفية المدققة على وجود الخالق جلَّ وعلا ، التي يراها الطالع في كتاب التهافت للغزالي وكتاب تهافت التهافت لابن رشد ، وقد طبع الكتابان طبعة جميلة في المطبعة اليسوعية ببيروت . ولا ينكر أحد أن في تلاوة كتاب الأخلاق لارسطو وكتاب جمهورية أفلاطون وكتب عديدة في التوحيد فوائد كثيرة يستفيد منها المتأدبون

واذا انتقلنا الى كتب التاريخ وجدنا أن لمؤرخي العرب فضلاً كبيراً في هذا الباب . ومن المعلومات أن التاريخ لا يشبه العلوم السائرة فالحادثة التاريخية لا تتكرر . وقلما ينقلها اثنان على وجه واحد ، لأن أثرها في شخص ما قد يختلف عن أثرها في شخص آخر . واذا لم يتح لها من يحفظها في صدره أو على القرطاس ضاعت ونسيها الناس . فالعرب كانوا من أحرص الأمم على الصدق في رواية الأخبار . وأظن أن العناية من خصائصهم وحدهم . وقد نشأ فيهم عدد كبير من المؤرخين الثقاة حفظوا تاريخ أمتنا في كتب نفيسة . ولا خلاف على كون هذه الكتب التي يعرفها كل أديب تحتوي احياناً على مبالغات أو على خرافات لا يسلم العقل بصحتها ولا خلاف أيضاً على كون التاريخ أصبح لهُ اليوم مآخذ وقواعد علمية راسخة كمعرفة اللغات القديمة وقراءة الآثار ومقابلة المستندات المختلفة وتمحيص محتوياتها ، ولكن كل ذلك لا يقدح في صحة زبدة الأخبار التي اشتملت عليها كتب التاريخ والتراجم العربية في العصور المختلفة . وتمكن العرب في الجغرافيا من صنع خارطات جغرافية تكاد تكون مجملاً لصور البلاد التي عرفوها . وقد اشتهر منها كرة الادريسي . ومن بدائه الأمور أن آلات المسح الحديثة لم تكن معروفة في تلك الأيام ، وانهُ لا يجوز اليوم ان نكتفي بالخارطات القديمة لما فيها من النواقص والاغلاط . ولكن من ذا الذي ينكر أن بعض الكتب الجغرافية القديمة كمعجم البلدان لياقوت الحموي مثلاً تعد خزانة ثمينة من الجغرافية والادب جميعاً ومن ذا الذي ينكر أن هذا السفر النفيس يقرؤه العربي بلذة في كل زمان وفي كل مكان . ومن الكتب القديمة ما لا تبلى جدتهُ على كر الأيام كمقدمة ابن خلدون وكتاب التاج أو أخلاق الملوك للجاحظ وأمثالها ويستنتج مما ذكر أن بعض آثار السلف في الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والاخلاق تصلح للنشر وان الزمان لا يقلل قيمتها ، وأن في تلاوتها فائدة ولذة للعالم والمتعلم على السواء

﴿ الحقائق والأخيلة ﴾ كان القدماء لا يعدون المرء عالماً الاَّ اذا تناول بالبحث جميع العلوم البشرية . ولهذا كان العلماء حريصين على التأليف بعلوم مختلفة لا رابطة تربط بعضها ببعض البتة . فالجاحظ مثلاً صنف في الحيوان ، وابن سينا في الفقه والتوحيد ، والكندي

في الموسيقى ، والشيخ عبد الغني النابلسي في الزراعة الخ . أما اليوم فالذي يدعي معرفة العلوم كلها يعد جاهلاً أو مجنوناً والذي يؤلف في علوم مختلفة يخلط ويعثر فلا تروج مؤلفاته ولا يكتب لها البقاء . والعالم في هذا الزمن هو الذي يلم إلماماً بأسس العلوم المهمة ثم يختص بعلم واحد أو بفرع واحد فينكب عليه سنين طوالاً ويتقنه درساً ويكون له فيه أبحاث خاصة أو نظريات او مكتشفات او مخترعات

لقد اتسعت العلوم اليوم اتساعاً يحير العقل . وها كم مثالاً واحداً على ذلك وهو علم الحشرات . فالحشرات في كتب الحيوان القديمة لا يتجاوز بحثها كلها عشرين او ثلاثين صفحة نصفها أدب ونكات وخرافة ولغة . أما اليوم ففي خزانة كتبي سفر فرنسي في علم الحشرات ألفه أحد اساتذتي يشتمل على ثلاثة مجلدات ، في كل منها ما لا يقل عن ٨٠٠ صفحة يضاف اليها سفر رابع في الصور والأشكال . ومع هذا يعد هذا الكتاب موجزاً في العلم المذكور لا مطولاً . وأعرف عالماً قضى عشرين سنة من عمره وهو يدرس رتبة واحدة من رتب الحشرات وهي منمدة الاجنحة . وهكذا الحال في العلوم السائرة وفروعها . فعصرنا اذن هو عصر الاختصاص

وما كانوا في القديم يقتصرون ، في الابحاث العلمية ، على الطرائق المتبعة في هذه الأيام وكانت أبحاثهم تارة يقينية قائمة على الحس والتجارب والاستدلالات العقلية ، وطوراً غيبية تقوم على التخيلات وعمل القوى المجهولة . أما اليوم فقد ساد الأسلوب العلمي في البحث . ومعنى ذلك ان القدماء كانوا يجعلون حوادث الكون خاضعة لارادة الأصنام فالآلهة فالاله واحد فالعلل المكامنة بها المنفردة عنها ، الى ان عدل العقل البشري أخيراً عن كل ذلك ، وانصرف في العلوم عن البحث عن أصل الكائنات ومدبرها الى النظر في النواميس الطبيعية التي تسير حوادث الكون بموجبها . فالعلم اليقيني اليوم يقتصر على تناول صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض ، بصرف النظر عن صلتها بالانسان الذي يحس ويفكر أو صلتها بمجموع العالم ولا يهتم في العلوم اليقينية بمعرفة ماهية الصلات التي تربط الاشياء بعضها ببعض . بل يكتفي بمعرفة النتائج من المقدمات . اي معرفة الحوادث التالية من التي سبقتها وأدت الى حدوثها . والعلوم اليقينية ثابتة لأنها تفرض بادىء بدء صحة شيء ما دون الابتعاد عنه ، وتقف عند النتيجة الخاصة دون ان تتعداها . ومنذ ان اقتصر الانسان على بحث العلوم بالاسلوب العلمي المذكور أخذت العلوم تتسع وتتقدم . ولم تبدأ العلوم تتجرد من الأساليب الغيبية الا منذ عهد باكون وديكارت في الفلسفة ، وكبلر وغاليليو في العلوم . ولم تصر العلوم يقينية محضة الا منذ القرن الماضي

أما الفلسفة فهي التطلع الى معرفة الكون بمجموعه ، ومعرفة النفس التي تدركه . وهي

أيضاً انتقاد العلوم وتحديدها واتمامها بأفكار يتوخى بها تصوير وحدة الكون الحقيقية. وتتناول الفلسفة مجموع المدركات كما تتناول علاقة ذهننا بما لا يمكن ادراكه. ويوحي العلم الفلسفة بأن لا تجزم الامور في كل ما لا يمكن ادراكه ما دام العقل البشري غير قادر على بته. ويتضح من ذلك ان الفلسفة تقوم منطقياً على الاستقراء وانها تتوخى جعل الحقائق ضمن المعقولات. أما الاخير فليست بعلم ولا فلسفة بل هي أوهام لا نحسها ولا نعقلها

ولأضرب مثلاً يتضح به الفرق بين العلم والخيال. اذا قلت لكم ان ذوات الأزهار في النباتات تتناسل ببزورها أو تتكاثر بأجزاء منها فأكون قد ذكرت لكم قاعدة علمية جامعة مانعة دلتنا عليها الصلة بين الأم والولد في تلك النباتات. وبناء على ذلك يمكنكم ان تثبتوا كون شجرة الصنوبر مثلاً لا تتولد الا من بزرة صنوبر وكون شجرة التين لا تتولد الا من بزرة تين او من قضيب تين يقطع فيغرس وهكذا. فاذا ذكرت لكم انهُ جاء في كتاب الفلاحة النبطية الذي ترجمه ابن وحشية ان الصنوبر والتين يتولدان من نباتات أخرى أجبتم بأن هذا خيال ووهم لا يقره الحس ولا العقل. وهاكم جملتي ابن وحشية (خذوا من شجرة الخرنوب الشامي من عروقها الطوال، فلفوها على قرني ثور، وانقعوها في الزيت سبعة أيام، ثم اجعلوها في الارض، واسحقوا الكندر وذروه عليها اذا غرست فانها تنبت شجر الصنوبر) و(ان خلطتم من اليبروح الرطب أصلاً وفرعاً، ومثل وزنه من العسل والشمع وزرعتموه في الارض كما تزرعون سائر الاشياء، وصببتم عليه وقت زرعه من الماء ما تعلمون انهُ قد وصل اليه، ثم تركتموه ولم تزيدوه، خرج من ذلك التين الاخضر الشديد الحلاوة)

وهاكم مثلاً آخر: اذا سألنا اليوم سائل عماذا يقتات الذئب، اجبناه على الفور ان الذئب من فصيلة اللواحم اي من آكلات اللحوم فهو يقتات بما تشتمل عليه من عناصر غذائية معروفة. ولكن اذا قرأنا نهاية الارب في فنون الادب للنويري (ج ٩ ص ٢٧١) نجده يقول (ويقال ان الذئب اذا لم يجد ما يأكلهُ استعان بادخال النسيم في فيه، فيقتات به) أي انهُ يكتفي بأكل الهواء. وهو مخالف لأبسط القواعد المعروفة في التغذية

واليكم مثالاً ثالثاً. يقر العلم امكان انقلاب الذكر خنثى. ولكن العلم يجعل هذا الانقلاب من الأمور الشاذة جداً ولاسيما في الانسان وكبار الحيوان. أما صاحب النويري فيقول (ج ٩ ص ٢٧٤) (يقال ان الضبع كالارنب تكون مرة ذكراً ومرة أنثى) أي انهُ جعل هذا الانقلاب قاعدة مطردة في الحيوانين المذكورين وهو مخالف للحقيقة

ومن هذه الأمثلة يتضح لنا الفرق بين بحث الأمور بأسلوب علمي يقيني وبحثها بأسلوب خيالي ظني. ففي العلم لا يوجد يقال . . ويقال . . واذا جزم أحد الفلاسفة ان الروح حية بعد الممات او غير حية أجابه العالم لا أدري لأن هذا الأمر لا يمكن بته بالوسائل العلمية

المعروفة . واذ نختلف صاحب الحيوان وتوهم أوهاماً كالتي توهمها القزويني كذبه العلم على الفور وأفهمه بأنها مخالفة لحقائق العلم الثابتة

﴿ الخلاصة ﴾ لقد كان أجدادنا العرب سدنة علوم الأقدمين وواسطة نقلها الى الأوربيين ولم يكتفوا بمدارسة تلك العلوم والاحتفاظ بها طيلة القرون التي نشبت فيها أوربة سادرة في خضم من الجهل المطبق ، بل وسعوها وأضافوا اليها اضافات مهمة تدل على ما ظهر فيهم من عقول جبارة تناولت العلوم بأساليب ووسائل علمية لا غبار عليها . ولا ينكر المنصفون من الغرب فضل العرب على الحضارة فيما أضافوه الى الطب والنبات والطبيعة والحساب والجبر والمثلثات والفلك وغيرها من العلوم . ولولا العرب لضاعت العلوم القديمة بجملتها ولتأخرت النهضة الحديثة سنين طوالا لا يعلم الا الله مقدارها

ولست ابتغي بهذه العجالة تعداد مآثر علماء العرب وبيان أبحاثهم الفذة التي سبقوا غيرهم اليها في مختلف المعارف البشرية ، فان ذلك يستغرق بضع محاضرات . ولكني ارى ضرورة التنبيه الى ان آثار الاجداد العقلية بعضها يصلح لكل زمان كالامهات من كتب الأدب والفلسفة والدين والرياضيات والتاريخ والجغرافيا وبعضها لا بد من الرجوع اليه ريثما نضع ما هو أصلح منه ككتب اللغة اي المعاجم . وبعضها لم يبق صالحاً او كافياً لايامنا هذه ككتب الطب والكيمياء والطبيعة والزراعة والنبات والحيوان

ونحن والاوربيون سواسية في هذا الصدد . فالانكليز مثلاً ما برحوا يطبعون كتب شكسبير الأدبية . وما برح الفرنسيون يقبلون على مدارسة روايات راسين وموليير . ولكنه لا يجول في خلد أحد من الطابعين في انكلترة او في فرنسة ان ينشر كتباً ألفت في عهد هؤلاء الأدباء في الطب والزراعة والطبيعة والكيمياء والنبات . واذا نشروا كتباً كهذه فانما يفعلون ذلك بغية اطلاع العلماء على حلقة من حلقات تقدم العلوم المذكورة لا بغية جعل الجمهور يستفيد من موضوعاتها العلمية لان هذه الموضوعات قد تبدلت تبدلاً كلياً بدءاً من اوائل القرن الماضي على الأخص

ولا يجوز لنا ان نكتفي بما عرفه الأجداد من تلك العلوم ، بل يجب ان نطلع على ما ولدته قرائح الأوربيين من العلوم والمخترعات الحديثة ، وان نقتبس منها ما فيه صلاحنا ماديًّا وأدبيًّا . وللوصول الى هذه الغاية ينبغي لنا ان نتعلم أساليب التفكير العلمي والبحث العلمي أي ان نزن جميع الامور بموازينها المضبوطة . ومتى سرنا على هذه الطريق القويمة بجد ونشاط نكون قد ساهمنا قليلاً في تقدم العقل البشري على حين ان أجدادنا قد ساهموا فيه كثيراً . وكيف نرضى بأن نعد مقصرين في حلبة المدنية الحاضرة واجدادنا كانوا مجلين في مدنية تلك الايام . فلنعمل بأساليب العصر الحديث مثلما عملوا بأساليبهم ولنذكر دوماً ما كانت الحياة الا للشعوب الجدة العاملة